الفصل الثانى

كيف نربى الشباب فى ظل الإسلام ؟

الشباب هم جنود الإسلام ، وهم الذين على سواعدهم يقوم بناء الأمم ويرتفع شأنها ، وإنما تفخر الأمم بشبابها العاملين المناضلين ، لأنهم هم الذين يتحملون العبء الأكبر من النهوض بها وتدعيم حضارتها ، وتشييد صرح مجدها .

ونحن إذا تأملنا الصحوة الإسلامية الضخمة التى أحدثها الإسلام فى الجزيرة العربية إبان ظهوره نجد الذين التفوا حول الرسول ﷺ كانوا شبابا ، وهم الذين آزروه وأيدوه ، وهم الذين تحملوا كل ألوان العذاب فى سبيل الله والإسلام .

فالرسول ﷺ نفسه كان شابا فى عنفوان شبابه يوم أن اصطفاه الله – عز وجل – لحمل هذه الرسالة المباركة ، فالمؤرخون مجمعون على أنه كان فى سن الأربعين ، وتلك هى الفترة الخصبة المبدعة فى عمر الشباب ، كذلك كان أبو بكر – رضى الله عنه – فى السابعة والثلاثين من عمره ، وأما عمر فكان فى السادسة والعشرين ، يوم البعثة ، ودخل فى الإسلام وهو لم يتجاوز الواحدة والثلاثين ، وعثمان كان يوم دخل الإسلام قلبه فى الخامسة والثلاثين ، وأما على بن أبى طالب فكان فى الثانية عشرة من عمره على أرجح الأقوال ، وقس على ذلك بقية الأصحاب الأبرار .

ويحدثنا التاريخ عن ابنى عفراء الصبيين الحدثين وعن موقفهما من أبى جهل يوم بدر كما يذكر لنا بكل اعتزاز وفخر ثلة من الشباب تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والرابعة عشر ، جاءوا يتنافسون للالتحاق بالجيش الإسلامى يوم أحد .

منهم عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى ، والبراء بن عازب ، وعرابة بن أوس ، وعمرو بن حزم ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج .

لا عجب والحالة هذه أن يهتم الإسلام بتربية الشباب ، وأن يولهم العناية الكافية ، لينشئوا على كريم الأخلاق ، ومحامد الصفات ، ويغرس فى قلوبهم العقيدة الصحيحة التى تذلل لهم العقبات ، والإيمان الصادق الذى لا تزلزله المحن ، ويدربهم التدريب الجيد لكى يتعودوا الصبر عند ملاقاة الأعداء .

لهذا وغيره وضع الإسلام المنهج اللازم لتربية الشباب والعناية بهم .

والإسلام لا يهتم بالطفل منذ ولادته فقط ، ولا بعد أن يصير شابا يافعا بل يعتنى به حتى قبل ولادته .

فالرسول ﷺ يأمر من يريد أن يتزوج بأن يختار الزوجة لأنها الوعاء الذى نستحفظه أبناءنا ، والمحضن الذى تربى بواسطته أفلاذ أكبادنا يقول ﷺ : « تخيروا لنطفكم فأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم »(١) .

ثم يعلمنا ﷺ كيف نختار الزوجة ، مبينا الصفات التى من أجلها يرغب الناس فى الزوجات ، ثم يحث على اختيار الزوجة المؤمنة ، فيقول : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك »(٢) .

فالزوجة التى رشحها الرسول ﷺ لتكون زوجة للمؤمن هى ذات الدين ، ولا بأس بأن يجمع مع الدين المال والجمال والحسب أو شيء منها ، ولكن الشيء الذى لا يجوز أن نتنازل عنه مطلقا هو الدين ، لأنه المرشح الوحيد للمرأة بأن تكون زوجة للمؤمن بمعنى أنها لو فقدت المال أو الجمال أو الحسب كفاها دينها أن تكون مقدمة لدى المؤمنين على غيرها .

أما أن يخطب المؤمن للجمال فقط أو للمال فقط فذلك ما نهى عنه

---

(١) رواه ابن ماجة والحاكم والبيهقى فى السنن .

(٢) رواه الشيخان .

الرسول وحذر منه المؤمنين . قال ﷺ : « لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن - أى يهلكهن - ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل »[1] .

فإذا وجد المؤمن الزوجة الجميلة التى تسره إذا نظر ، العاقلة التى تطيعه إذا أمر ، المؤمنة التى تحفظ غيبته فقد جمع الخير كله ، ولهذا بين الرسول أن المرأة التى تجمع هذه الصفات هى خير النساء ، فكأنه يحث المؤمنين على البحث عن هذا النوع من النساء .

يقول ﷺ : « خير النساء التى تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره »[2] .

هكذا يجعل الإسلام موضوع الزواج من الأهمية ، ويوجه أنظار الرجال إلى الطريق السوى لاختيار الزوجة ، ويحيط الزوجة بسياج قوى من الصفات التى تحقق الغاية من الزواج ، لأن الزواج فى الإسلام ليس لمجرد المتعة وقضاء الوطر ، وإنما هو إلى جانب ذلك وسيلة لحفظ النوع ، وتكثير النسل ، وأسلوب طاهر من أساليب تنمية المجتمع ، وتقوية الروابط بين الأسر .

قال - تعالى - : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾[3] .
والآية الكريمة تشبه الزوجات بالأرض التى يشقها الفلاح ليضع فيها البذر لتنتج له الزرع ، هكذا شأن الزواج فى الإسلام ، أما الذين يريدون الاستمتاع فقط ، وقضاء الوطر لا غير ، فإنهم قد يجدون ذلك فى غير الزواج ، ولهذا يعرض أمثال هؤلاء عن الزواج لما فيه من المسئولية والتبعة ، ويستمتعون بغير زوجة ويقضون وطرهم كيفما اتفق ، كما هو شائع الآن فى كل المجتمعات إلا من رحم ربى .

ولكن لماذا يهتم الإسلام كل هذا الاهتمام بالزوجة ، ويضع كل هذه الشروط فى المرأة ، ويحذر من مخالفة ذلك تحذيرا شديداً ؟ .

---

(١) رواه ابن ماجة

(٢) رواه احمد فى المسند والنسائى فى السنن . (٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٣ .

ليس هناك إجابة عن هذا السؤال إلا بأن الزواج رباط متين يربط بين الزوجين ، ويحملهما المسئولية لبناء أسرة قوية تزيد بناء المجتمع صلابة وتشد بعضه إلى بعض ، والإسلام يرى أنه إذا لم تتحقق هذه الشروط يكون الرباط واهيا ، وتكون الأسرة معرضة للانهيار ، حيث لا توجد الضمانات التى تمكن من استمرارية الترابط بين أفراد الأسرة ، وأخيراً فإن الزوجة كما أشرت سابقا هى المحضن الذى نستودعه أبناءنا ، ونستأمنه على تربيتهم وصياغتهم على الشكل الذى نحبه لهم .

والإسلام عندما يشدد فى اتباع هذه الشروط ، ويؤكد على المحافظة عليها يدل بذلك على اهتمامه بالوليد الذى سيكون من هذين الأبوين .

فإذا حملت المرأة فإن الإسلام يعتنى بهذا الجنين ، ويحيطه بالعناية والرعاية ، فلا يكلف المرأة مالا تطيق ، ويبلغ الأمر إعفاءها من بعض الفرائض التى فرضها الله على المسلمين الذكر والأنثى على حد سواء ، ذلك لأنها إن خافت على جنينها وأدركها شهر رمضان فإنها يسقط عنها الصوم ، وتطعم عن كل يوم مسكينا كما أفتى بذلك ابن عباس وابن عمر - رضى الله عنهم أجمعين - .

روى أبو داود عن عكرمة ، أن ابن عباس قال فى قوله - تعالى - : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية ﴾ كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة ، وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكينا ، والحبلى والمرضع إذا خافتا - يعنى على أولادهما - أفطرتا وأطعمتا .

ورواه البزار ، وزاد فى آخره : وكان ابن عباس يقول لأم ولد له حبلى : « أنت بمنزلة الذى لا يطيقه ، فعليك الفداء ، ولا قضاء عليك » وصحح الدار قطنى إسناده .

وروى نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها فقال : « تفطر ، وتطعم مكان كل يوم مسكينا مدا من حنطة » رواه مالك والبيهقى .

كذلك يحرم عليها الإسلام أن تجهض نفسها لتسقط ولدها كما يمنع الزوج من ذلك فإن فعلت الأم أو الأب شيئا من ذلك فإثمهما كبير وذنبهما عظيم ، أما

إذا كان الجانى على الجنين غير الأب أو الأم فإن عليه دية ذلك الجنين غرة عبداً أو أمة .

فإذا وضعت الأم ولدها فعليها رعايته ونظافته ، وإرضاعه وحمايته ، وعلى الأب النفقة عليه والاهتمام به ، وعليه أن يعق عنه – أى يذبح عنه ذبيحة – فى اليوم السابع من مولده ، فيتصدق بثلثها ، ويهدى ثلثها ، ويأكل ثلثها ، وعلى الأب ألا يلطخ رأس المولود بدم العقيقة كما يفعل كثير من الناس لأنها عادة جاهلية ممقوتة ، وفيها تقذير للطفل وتشويه له .

وإذا مرض الطفل أو تأذى بشيء على الوالد معالجته حتى يزيل عنه ما به من المرض والألم فقد سئل رسول الله ﷺ أفنتداوى ؟ قال : « نعم ، يا عباد الله تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد – الهرم – »[١] .

فإذا بدأ الطفل يعى ، ويفهم ما يوجه إليه ، أخذ أبواه فى تعليمه الصفات الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ، كالصدق والأمانة والشجاعة وغيرها من الأخلاق التى يجب أن يلقنها الطفل حتى ينشأ ويشب عليها .

فعن عبد الله بن عامر – رضى الله عنه – قال : دعتنى أمى يوما ، ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا ، فقالت : ها تعال أعطك .

فقال لها الرسول ﷺ : « ما أردت أن تعطيه ؟ » .

قالت : أردت أن أعطيه تمرا .

فقال لها ﷺ : « أما إنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كَذْبة »[٢]

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال لصبى هاك ، ثم لم يعطه فهى كَذْبة »[٣] .

---

(١) رواه أحمد والترمذى وأبو داود .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه أحمد فى المسند .

هكذا يحرص الإسلام على ألا يسمع الصبى إلا صدقا ، ولا يمنى إلا حقا ، حتى ينطبع على ذلك ويشب عليه فيصير ذلك عادة له وخلقا ، وقديما قال الشاعر :

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

كذلك يعود الشجاعة الأدبية وتستحسن منه لتصير خلقا له ، فمن ذلك ما فعله عمر بن الخطاب مع ابنه عبد الله – رضى الله عنهما – حين سأل الرسول ﷺ أصحابه عن الشجرة التى لا يسقط ورقها ، وأنها مثل المسلم ، فلم يستطع الصحابة الجلوس معرفتها ، وسألوا الرسول عنها فقال : « هى النخلة »(١) .

وكان ابن عمر قد وقع فى نفسه أنها النخلة ، ولكنه لم يصرح به ، ولم يتكلم لصغر سنه ، فلما أجاب الرسول ﷺ بأنها النخلة ، قال ابن عمر لأبيه لقد وقع فى نفسى أنها النخلة ، ولكننى استحييت لصغر سنى ، فقال عمر : « لأن تكون قلتها أحب إلى من أن يكون لى كذا وكذا » .

إن هذا الكلام من عمر لابنه – رضى الله عنهما – تشجيع له على أن يتكلم فى حضرة من هو أكبر منه سنا بالعلم الذى يفطن إليه ويفهمه ، لأن الحياء والسكوت يضيع كثيرا من الفوائد ، ويقبر كثيرا من المواهب ، ويقتل الشجاعة الأدبية التى ينبغى أن يتحلى بها المؤمن حتى يتعود على النصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغير ذلك مما يجب على المسلم القيام به .

ومن ذلك أيضا ما وقع بينه وبين عبد الله بن الزبير – رضى الله عنهما – حين مر عمر فى طريق من طرق المدينة فرأى صبية يلعبون ، فلما رأوه فروا هاربين ووقف ابن الزبير وحده ، واقترب منه عمر ، وسأله لماذا لم تفر كما فر أصحابك ؟ .

---

(١) رواه البخارى .

فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ، ليست الطريق ضيقة فأوسع لك ، ولم أفعل ذنبا فأخافك .

فسر عمر من هذه الإجابة ، ورضى عن ابن الزبير .

ونحن لا نفهم من هذا إلا أن الخليفة يأخذ بيد الصبى ليكون شجاعا جريئاً يواجه الأمور فى شجاعة ، ويحسم المواقف بجرأة ، وإذا تعود ذلك وهو لا يزال صغيرا ، فإنه يشب عليه ، ويتخلق به فى كبره .

وعندما يبلغ الطفل السابعة من العمر يدخل الاهتمام به فى طور جديد حيث يبدأ سن التعليم ، والإسلام لم يهمل هذا الجانب وكيف يهمله وهو الدين الذى جعل طلب العلم فريضة ، وحث على التعلم فى أول آيات نزلت من القرآن الكريم على قلب النبى العظيم ، فقد أمر بالقراءة ، وذكر آلة الكتابة ، وحث على العلم بذكره ثلاث مرات ، وفى السورة التى تلت هذه السورة فى النزول يقسم الله – عز وجل – بالقلم وما يسطرون .

لا يتصور أحد بعد ذلك كله أن يغفل الإسلام المسألة التعليمية ، أو حتى لا يحث عليها ، لهذا حدد الإسلام الفترة التى ينبغى فيها بدء تعليم الصغار وقسم المدة التعليمية إلى مراحل :

المرحلة الأولى : وقد أشار إليها الرسول ﷺ بقوله : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع »(١) .

فالرسول ﷺ قد حدد للمرحلة الأولى من التعليم سن السابعة ، وهى السن التى يميز فيها الطفل ، ويدرك ما يتعلمه ويعيه ، ويثبت فى ذهنه فلا يتفلت منه .

ونحن نلاحظ أن هذه السن التى حددها الإسلام لبدء التعليم لم تختلف كثيرا عن السن التى حددها علماء التربية فى العصر الحديث فهؤلاء قد حددوا سن

---

(١) رواه أبو داود والحاكم .

السادسة ، ولا شك أن الطفل يبدأ فى السابعة بعد أن ينتهى من السادسة ، ومعنى ذلك أن الطفل يتلقى تعليمه الأولى وقد انهى سن السادسة ، وبدأ فى السابعة .

والطفل فى تلك المرحلة يكون كالعجينة يشكله المعلم كيفما شاء ويغرس فيه من الأخلاق والصفات ما بها تستقيم حياته ، وتحمد سيرته لهذا كان من الواجب على الآباء اختيار المعلمين المشهورين بالخلق القويم ، والدين المتين ، والسيرة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، حتى يكونوا عونا للولد على تكوين السلوك الذى سيشكل وضعه فى المجتمع الذى يعيش فيه .

وقد ثبت بالتجربة أن الطفل فى هذه السن عنده قدرات جيدة على تخزين ما يلقى عليه من المعلومات ، بحيث يستطيع استعادتها وتصورها كما رآها وكما سمعها ، أما قبل ذلك السن فكثيرا ما يخلط الطفل بين المعلومات ، ولا يستطيع التمييز بينها بوضوح ، بل لا يقدر على تصورها إلا فى صورة مشوهة باهتة .

ومن أجل هذا لاحظ المربون فشلا كبيرا يلاحق الأطفال الذين يدفع بهم آباؤهم إلى المدارس فى سن مبكرة قبل تمام السادسة ، إلا نزرا يسيرا من هؤلاء ، وهم الذبن يمكن أن نطلق عليهم العباقرة أو النوابغ .

وهؤلاء ولا شك لا يقاس عليهم فى المجتمعات لأنهم فلتات يجود بهم الزمان بندرة تجعلهم فى عداد المفقودين .

والإسلام لما حدد سن السابعة لبدء التعليم تحرى فى ذلك ألا يرهق الطفل فى سن هو أحوج ما يكون فيها إلى استجماع قواه ، وتكوين قدراته وطاقاته فإذا بددها الطفل وهى لم تكتمل بعد لم يستطع تجميعها والاستفادة منها فى الوقت المناسب .

ونلاحظ هنا أن الرسول ﷺ قد أمر المعلم أن يبدأ مع الطفل بتعليم الصلاة ، ولم يأمر بتعليم الشهادتين اللذين هما الركن الأول والأعظم من أركان الإسلام ، لأنه طفل نشأ بين أبوين مسلمين ، والمفروض فيه سلامة العقيدة ، وصحة الإيمان ، ويكفى ذلك لأن نبدأ معه بتعليم الفرائض التى فرضها الله على المسلمين ، أما إذا لاحظنا انحرافا فى العقيدة ، أو عدم وضوح فى حقيقة الإيمان

فحينئذ يجب البدء بتعليم العقيدة ، وتصحيح الانحراف الذى يعتبر طارئا على حياة الطفل ، وليس شيئا أساسيا عنده .

وهذه هى خطة الرسول ﷺ مع أصحابه ، فإنه كان يكتفى منهم بالنطق بالشهادتين ، ثم يأمرهم بعد ذلك بما فرض الله على المسلمين ، كما حدث ذلك مع ضمام بن ثعلبة وغيره ممن دخل فى الإسلام ولكنه لما لمس الانحراف من أولئك الذين طالبوه بأن يجعل لهم ذات أنواط صحح الانحراف ، وعدل المسيرة ، وطالبهم بنبذ ذلك الشرك الذى يخرجهم من الإسلام .

وكذلك لما كانت الجارية تغنى لم ينكر عليها شيئا من الغناء ، فلما قالت (وفينا نبىّ يعلم ما فى غد)[١] .

قال ﷺ : « دعى هذه وقولى بالذى كنت تقولين »[٢] ، ولما مر ﷺ بنساء من الأنصار فى عرس لهن ، وهن يغنين :

وأهدى لها كبشا تنحنح فى المربد وزوجك فى البادى وتعلم ما فى غد

عندئذ قال الرسول ﷺ : « لا يعلم ما فى غد إلا الله »[٣] .

هكذا يجب أن نسير على هذا النهج ، فلا نتهم مسلما بفساد العقيدة حتى يبدو منه ما يدل على ذلك ، ولا نرمى شخصا بالكفر حتى نرى منه ما يصيِّر إلى ذلك غير محتمل للتأويل ، فإذا رأينا ذلك وجب أن نصحح العقيدة ، ونقوم ما طرأ عليها من الانحراف حتى يسلم المجتمع من هذه الآفات .

وإنما اختار الرسول ﷺ الصلاة ليبدأ بها المعلم لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهى التى تفرق بين المسلم والكافر ، وهى التى تربط قلب المسلم بالله – تبارك وتعالى – بما فيها من المناجاة والإخبات ، ثم هى بعد ذلك كله تتكرر خمس مرات فى كل يوم ، وتكرارها يعود الطفل عليها فى أقصر فترة

---

(١) رواه البخارى .

(٢) نفسه .

(٣) الطبرى فى الأوسط بإسناد صحيح .

ممكنة ويطبعه بمجموعة من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة كالنظافة والنظام والطاعة .

نعم الطفل يتعلم النظافة من الصلاة ، لأنه لا صلاة بغير وضوء ، والوضوء غسل للأطراف التى تتعرض كثيرا للأتربة وأنواع من القاذورات كالاستنجاء والمخاط ، فإذا غسل الطفل أطرافه عند كل صلاة أصبحت النظافه ديدناً له لا يستغنى عنها .

ويتعلم النظام حيث يقف مع المسلمين فى صف مستو خلف الإمام لا يركع حتى يركع الإمام ، ولا يرفع حتى يرفع ، ولا يسجد حتى يسجد ، ولا يسلم حتى يسلم ، فهو إذن منقاد لحركات الإمام ، مقيد بفعله ، وعندئذ تنضبط حركاته ، وتنظم سكناته ويصبح النظام جزءا من حياته .

كذلك يتعلم الطاعة ، لأنه يستجيب عندما يسمع النداء : حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، فيلبى طاعة لله ، وابتغاء رضاه .

هذا إلى جانب ما يكتسبه من محبة إخوانه ، والتعاون معهم ، والوقوف على أحوالهم ، والسعى لقضاء مصالحهم إلى غير ذلك مما تقتضيه تعاليم الإسلام ، وتفرضه على المجتمع الإسلامى .

وأما تعليم بقية الفرائض فتأتى فى حينها وذلك لأن بقية الفرائض موسمية ، بمعنى أنها تكون فى فترة محدودة من أيام السنة ، ولا تتكرر إلا كل عام ، فالصيام مثلا فى شهر رمضان ، والزكاة بعد امتلاك النصاب وحولان الحول ، والحج فى أيامه المعلومات ، فإذا ما حلت الفريضة علمها وعلم كيف يؤديها .

على أننا نرى أن الصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا إذا دخل رمضان دربوا أبناءهم على الصيام ، ويحولون بينهم وبين الطعام حتى يجهدهم الجوع فيطعمونهم ، وهكذا شيئا فشيئا حتى يقووا على الصيام ويتعودوه ، وحينئذ يلتزمون به ، ولا يفرطون فيه .

وينبغى أن يهتم المربى فى هذه المرحلة بالجانب الحسى الذى يدركه الطفل بغير عناء ولا تفكير عميق ، على ألا يهمل جانب العقل مرة واحدة بل يلمسه

برفق ويعالج جوانبه المختلفة بالطريقة التى تنميه تنمية طبيعية لا إفراط فيها ولا تفريط .

ومدة تلك المرحلة ثلاث سنوات أو أربع يركز فيها على التدريب العملى لكل ما يتعلمه الطفل إلى جانب شيء من النظريات التى يمكن إدراكها بسهولة تشجع الطفل على الاستمرار فى التلقى والتعليم .

وأحسن طرق التدريس فى تلك المرحلة هى القدوة الحسنة التى يعجب بها الصبى ، ويحاول محاكاتها ، والتأسى بها ، وأكثر ما يرى الصبى القدوة الحسنة فى أبويه وفى أستاذه ، فيجب أن يكون الأبوان نموذجين ينظر إليهما الصبى نظرة الإعجاب والتقدير إلى جانب نظرة الحب والاحترام ، كذلك يجب أن يكون الأستاذ ، حتى لا يرى الطفل أمامه متناقضات تعكر عليه صفو الحياة التى يستقبلها بشغف واهتمام ، فيرى الحياة متناقضة لا تسير فى اتجاه واحد مما يسبب له التعثر والفشل ، ويؤدى إلى العواقب الوخيمة .

المرحلة الثانية : وتبدأ هذه المرحلة فى سن العاشرة حيث يكون الصبى قد اشتد عوده ، ونما عقله ، وأصبح لديه القدرة على الاختيار والتفريق بين الأشياء ، فإذا كانت الفترة السابقة قد أثرت فى عقله ، واستقرت تعاليمها فى قلبه فستكون تلك الفترة امتدادا للفترة السابقة يتم التعليم فيها بالنصح والإرشاد ، والأمر والنهى .

أما إذا ظهرت بوادر انحراف فى سلوك الطفل ، ولم يستقر على الحال التى كان عليها فى السنوات السابقة التى استنفد فيها المربى كل وسائل التوجيه والإصلاح ، فلابد حينئذ من تغيير الأسلوب حيث ثبت أنه غير مجد ، ولم يحقق الثمرة المرجوة منه ، وليس أمام المربى إذن إلا أن يوقع نوعا من العقوبة يردع ولا يزعج ، ويصلح ما أفسده اللين مع الصبى المتمرد .

وهنا يقرر الرسول ﷺ تلك العقوبة فيقول : « واضربوهم عليها وهم أبناء عشر » ، وهذا الضرب هو الذى تعارف عليه علماء هذه الأمة بأنه ضرب غير مبرح – لا يكسر العظم ولا يسيل الدم – فهو إذن عقوبة للردع والتنبيه على ما وقع فيه الصبى من الخطأ ليعدل مسيرته ويصحح طريقه .

فالصبى حينما ينحرف فى غفلة من نفسه ، أو فى لحظة ضعف أمام مغريات لا قدرة له على مقاومتها ، وهو فى كلتا الحالين كالنائم يحتاج إلى من يوقظه ليتنبه ، وإيقاظه يكون بتلك الضربات التى هى بمثابة الضوء الأحمر الذى يضاء لتوقى الخطر .

فالضرب إذن ليس هو الضرب المنفر الذى تتسبب عنه العقد النفسية والانهيارات العصبية ، ولهذا تقرر أن يكون أسلوبا من أساليب التربية الناجحة يشهد بذلك كل من مر بتلك المرحلة فى حياته التعليمية .

وما يحاوله علماء التربية اليوم من استبعاد العقوبة لما يترتب عليها من المشكلات النفسية والجسمية إنما هو وهم ليس له من الواقع نصيب ، لأن العقوبة إذا لم تقع حسيا فإنها تقع معنويا شاءوا أم أبوا والتسوية بين المحسن والمسىء والمجد والكسول عقوبة للمحسن والمجد ، ومكافأة للمسىء والكسول وترك المسىء والكسول عقوبة لهما[١] .

فالأولى أن نكون صرحاء مع أنفسنا ، ومع واقع العملية التربوية ونعترف بالعقوبة كأسلوب من أساليب التربية والتعليم .

والصبى فى هذه السن يؤهل لأن يكون صاحب رسالة ، ويدرب على تحمل المشقات ، ويعود كيف يتحكم فى انفعالاته وعواطفه ، حتى يستطيع مواجهة ما سيقابله فى المرحلة القادمة التى تعتبر من أخطر المراحل فى حياة الإنسان .

وقد يكون الضرب فى تلك المرحلة مما يجب أن يتحمله الطفل كنوع من المشقات التى يجب تحملها بصبر حتى يتعود تحمل ما هو أشق منه مما سيواجهه فى حياته .

وفى تلك المرحلة يعتنى بالجانب الروحى والعقلى ، ولا يكتفى بالجانب

---

(١) ينظر تفصيل ذلك فى باب الحركة العلمية من كتابنا (المدينة المنورة عاصمة الإسلام ودولته الأولى) .

الحسى ذلك لأن الصبى سيواجه الحياة بمشكلاتها العديدة ، فلابد أن يكون مسلحا بالجانب الروحى ، وستعرض عليه أمور لابد أن يوجد لها الحلول المناسبة وذلك عن طريق الجانب العقلى .

وينبغى على المربى أن يلاحظ انفعالات الصبى وتصرفاته حيال بعض المواقف التى يمر بها ، فإن و جد أنه يتحكم فى انفعالاته ، ويتصرف بطريقة تبشر بحكمة واتزان شجعه وأخذ بيده ، وإذا لاحظ خلاف ذلك عدل مسيرته ، و قوم سلوكه بحيث يستقيم على الجادة التى يجب أن يكون عليها هو وأمثاله فى تلك المرحلة .

إن تعويد الصبى التحكم فى انفعالاته ، والاتزان فى تصرفاته فى سن مبكرة يطبعه على ذلك ، ويجعله كلما كبر يزداد تحكما واتزانا ، فلا ينفعل لأتفه الأسباب ، ولايثور إلا إذا اقتضت الحكمة الثورة ، وهو مع ثورته لا يخرج عن حد الاعتدال حتى لا يخطىء ، ولا يرتكب من الأفعال ما يشين أو يؤخذ به .

وهذا ما يجب أخذ الصبى به فى الجانبين السلوكى والأخلاق ، أما عن ما يجب أن يتعلمه فى تلك الفترة فينبغى أن تكون العلوم التى يتلقاها مساعدة لتقويم الجانبين السابقين ، كحفظ شىء من القرآن الكريم ، وتعلم بعض الأحاديث الشريفة ، ومعرفة الحلال والحرام ، وإلى جانب ذلك تكون العلوم التى تساعد على نمو العقل ، واكتشاف المواهب ودرجة الذكاء فى الصبى ، لأن ذلك يمكن المربين من وضع المناهج فى المرحلة الآتية ، وتصنيف الطفل بحسب ميوله .

فاكتشاف المواهب ، ومعرفة درجة الذكاء فى الطفل تمكن من توجيه الصبى الوجهة التى يبرز فيها ، ويمكن الاستفادة به فى مستقبل الحياة .

ويجب أن نلاحظ أن هناك أخطاء ستقع من الصبى عمدا أو سهوا وعلى المربى ألا يعنف الطفل أو يلومه لوما شديدا على ما وقع من الأخطاء لأن التعنيف المتكرر يبلد الحس ، ويقتل الشعور ، ويولد العناد ، كما أن اللوم الشديد يؤدى إلى النفور ، ويقود فى النهاية إلى التمرد ، ويطبع الصبى على اللامبالاة وحينئذ يكثر الخطأ ، بل ويتعمده كنوع من التحدى الذى يعبر به المخطىء عن عدم احترامه للنظم والمربين .

أما إذا تغاضى المربى عن الخطأ للمرة الأولى دون أن يشعر المخطىء بأنه رأى أو سمع ، ثم يأخذ فى العلاج بطريقة إيجابية تشعر المخطىء بخطئه ، كضرب الأمثال ، وسرد القصص ، والثناء على الذين لا يخطئون إلى غير ذلك من الأساليب التى ثبت نجاحها فى التوجيه والإصلاح .

وهكذا كان يفعل ﷺ يعرض ولا يصرح ، وينصح ولا يعنف ، وكان يقول : « عليكم بالرفق فإنه ما دخل شيئا إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه » « إن الله – تعالى – يحب الرفق فى الأمر كله »(١) .

ولما أكل مع عمر بن أبى سلمة ، وطاشت يده فى الصحفة لم يعنفه ، ولم يشتد عليه فى اللوم ، ولكنه ﷺ علمه كيف يأكل فقال : « يا غلام ، سم الله تعالى ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك »(٢) .

كذلك لما غلا بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – فى شيء من العبادات ، وبلغ رسول الله ﷺ ما قالوا ، نصح ﷺ نصيحة عامة لئلا يذكر أسماءهم فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ؟ »(٣) .

وحث الرسول ﷺ على تعليم الصبيان وتأديبهم ، ووعد على ذلك الأجر العظيم ، على أننا ينبغى أن نعلم أن التعليم والتأديب ليس خاصا بالذكور فقط ، بل هو عام للذكور والإناث على حد سواء .

فقد كان ﷺ يعلم النساء كما يعلم الرجال ، وجعل للنساء مجلسا خاصا ويوماً خاصا يعلمهن فيه(٤) .

وجاء فى الحديث : « أيما رجل كانت عنده وليدة ، فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران »(٤) .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه البخارى ، ويراجع ذلك بالتفصيل فى باب الحركة العلمية من كتابنا (المدينة المنورة عاصمة الإسلام ودولته الأولى) .

والحديث هنا يصرح بتعليم الأمة « الوليدة » وتأديبها ليدل على أن ذلك فى أبناء الرجل من الحرائر من باب أولى ، وهكذا يهتم الإسلام حتى بتعليم الإماء وتأديبهن على هذا النحو من الإتقان والإحسان .

ونحن بتعليم أبنائنا فى هذه المرحلة العلوم التى تربى فيهم خشية الله – عز وجل – وتزكى أرواحهم كالعلوم الشرعية ، وبتدريسهم المواد التى تنمى مواهبهم وتنشط عقولهم ، وبها نكتشف قدراتهم وذكاءهم كالرياضيات والتربية الفنية ، وبعض الأصول المهنية نكون قد أعددنا الجيل لمواجهة كثير مما سيقابله فى المرحلة القادمة ، والتى سماها علماء التربية وعلم النفس والاجتماع بمرحلة المراهقة .

المرحلة الثالثة : وهذه أخطر المراحل فى حياة الإنسان ، (مرحلة المراهقة) والمراهقة هي بلوغ الذكر حد الرجال ، والأنثى حد النساء ، بمعنى أن الإنسان فى تلك الفترة يشعر بتغيرات كثيرة سواء كان ذلك فى جسمه أم فى نفسه .

وهذه الفترة تبدأ من الثالثة عشرة غالبا ، وخاصة فى المناطق الحارة ، ولكنها قد تتأخر قليلا أو تتقدم قليلا ، وأخطر ما يشعر به الإنسان فى تلك الفترة هو الميل الجنسى ، حيث يشعر الذكر بالرغبة فى الإناث ، وتشعر الأنثى بالرغبة فى الذكور ، وهذا الميل فطرى خلقه الله – تبارك و تعالى – فى النوعين لإعمار الكون .

فنزعة الرجل إلى المرأة ، وميل الأنثى إلى الذكر هو الوسيلة الوحيدة للتناسل ولولا ذلك الميل الفطرى لنفر كل نوع من الآخر ، ولم يأتلفا ؛ فلم يكن هناك إنجاب ولا نسل ، فينقرض النوع ، وتبقى الأرض خرابا يبابا ، بل لولا ذلك الميل لما وجد الإنسان أليفته ، لأن ذلك النسل كله منذ خلق الله الأرض وأهبط عليها آدم وحواء – عليهما السلام – إنما حدث من الميل المتبادل بينهما . فإذا لم يكن هناك الميل الجنسى لمات آدم ، وماتت حواء بغير إنجاب ، وبموتهما ينقرض جنسهما ، ولا يكون له وجود .

فالميل الجنسى إذن حقيقة خلقها الله فى الإنسان لإعمار الأرض وإثرائها بالجنس البشرى ، قال – تعالى – : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾(1) .

فالذين لا يؤمنون بذلك ، ويتخذون الميل الجنسى ذريعة للإفساد فى الأرض ، والاعتداء على الأعراض ، وهتك الحرمات ، إنما هم قوم مخربون يجب التخلص منهم ، ليعيش المجتمع الإسلامى فى أمان واطمئنان وسلام .

ولا ينكر أحد أن هذا الميل الفطرى يطرأ عنيفا بقدر عنفوان الفترة التى ينشأ فيها ، فيهجم على الإنسان ، فيغير سلوكه ، ويغير فى شكل جسمه وصوته ، ويصحب هذا التغيير ثورة وتمرد ، فإذا استطاعت هذه الثورة أن تجد المجال الذى تعبر فيه عن ذاتها برزت فى أقبح صورها ، فهناك تجد العربدة والعصيان ، والتعبير عن الذات فى صورتها البهيمية الشرسة التى ترفض كل القيم ، ولا تعترف بشىء من المثل والفضائل .

والمجتمع الذى يوفر هذا المجال لشبابه مجتمع محكوم عليه بالإعدام ، لأن التفسخ والتدهور الأخلاق ، والانحطاط السلوكى لا يمكن أن يكون إلا سُماً زعافا يهد كيان الأمم ، ويقوض بنيانها ، ويجعلها أثراً بعد عين .

يقول الأستاذ المودودى – رحمه الله – : « والتاريخ يشهد أنه ماسرى هذا الداء فى مفاصل أمة إلا أوردها موارد التلف والفناء ، ذلك بأنه يقتل فى الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لبقائه وتقدمه فى الحياة ...... وما دامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب وتكون عواطفهم عرضة أبدا لكل فن جديد من الإغراء والتهييج ، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة ، قوى التحريض ، ويكون الدم فى عروقهم فى غليان بتأثير ما حولهم من الأدب الخليع والصور العارية والأغانى الماجنة والأفلام الغرامية والرقص المثير والمناظر الجذابة من الجمال الأنثوى العريان ، وفرص الاختلاط بالجنس المخالف . استغفر الله ! بل أنى

---

(1) سورة هود : الآية ٦١ .

لهم ولأجيالهم الناشئة أن يجدوا فى غمرة هذه المهيجات الجو الهادىء المعتدل الذى لا مندوحة لهم عنه لتنشئة قواهم الفكرية والعقلية ؟

وهم لا يكادون يبلغون الحلم حتى يغتالهم غول الشهوات البهيمية ، ويستحوذ عليهم ، وإذا هم وقعوا بين ذراعى هذا الغول فأنى لهم النجاة منه ومن غوائله ؟ » . (١)

نعم لا يمكن لمجتمع يلقى بنفسه فى فم الأسد ثم يرجو النجاة ، كما لا يمكن لإنسان يلقى بنفسه فى النار ثم يخرج منها سليما معافى .

لابد أن تكون عاقبة هذا المجتمع الزوال إلى الأبد ، وبغير رجعة إلى الوجود ، والتاريخ شاهد عدل على ذلك ينبئنا عن مصير الأمم التى انغمست فى الشهوات ، وغرقت فى الملذات ، وهذا كاتب فرنسى يشهد بنفسه المصير الذى آلت إليه بلاده بسبب انتشار الدعارة ، فيكتب تقريرا لرابطة منع الفواحش فى جلستها الثانية ، يقول بوريس : « هذه الفوتغرافات الداعرة المتهتكة تصيب أحساسيس الناس بأشد ما يمكن من الهيجان والاختلال ، وتحث مشتريها البؤساء على المعاصى والإجرام التى تقشعر من تصورها الجلود .

وإن أثرها السيء المهلك فى الفتية والفتيات لمما يعجز عنه البيان ، فكثير من المدارس والكليات قد خربت حالتها الخلقية والصحية لتأثير هذه الصور المهيجة ، ولا يمكن أن يكون للفتيات - على الأخص - شيء أضر وأفتك من هذه »(٢) .

هذا المجتمع الأوربى الذى أباح للشهوة أن تسيطر بغير تهذيب أو توجيه حتى استشرت فيه تلك الموبقات ، ولم تدع مجالا إلا لوثته بقذارتها وبهيميتها ، حتى دخلت المدارس والكليات كما أشار إلى ذلك التقرير .

أما فى المجتمع الأميركى فقد أدى الابتهتار فى هذا المجال ، كما وصلت

---

(١) الحجاب : ص ٣٢ - ٣٣ .
(٢) نفسه : ص ٨٤ - ٨٥ .

الفوضى فيه حدا أزعج جميع العقلاء والمفكرين ، لما لمسوه من الانحطاط الخلقى والانهيار السلوكى .

وقد أدت إباحة ممارسة الجنس فى المجتمع الأمريكى إلى ظهور البلوغ الجنسى قبل وقته ، وإلى إقامة علاقات جنسية بين الفتية والفتيات فى سن تتراوح بين التاسعة والحادية عشرة .

وهذا أحد قضاة محاكم جنايات الصبيان فى أمريكا (بن لندس) يجرى بحوثا على حوالى ٣١٢ صبية ، فوجد أن ٢٥٥ منهن قد أدركن البلوغ فيما بين الحادية عشرة والثالثة عشرة من أعمارهن .

كما أثبت أن فيهن من إمارات الشهوة الجنسية والمطالب الجسدية مالا يكون عادة إلا فى بنات الثامنة عشرة فمن فوقهن سنا[1] .

كذلك يقول الدكتور أديث هوكر مصورا تلك الحالة المخزية من وجود العلاقات الجنسية المبكرة جدا فى المجتمع الأمريكى ، يقول :

« بنت فى السابعة من عمرها ، من بيت عريق فى الشرف والمجد ، ارتكبت الفاحشة مع أخيها وعدد من أصدقائه .

ونفر آخر من خمسة أولاد ، يشتمل على صبيتين وثلاثة صبيان متجاورين متقاربين وجدوا متعلقين بعضهم ببعض بالعلاقات الجنسية وقد حفزوا على ذلك غيرهم من الأولاد أيضا ، وكان أكبر أولئك سنا ابن عشر سنين ، وبنت أخرى فى التاسعة ، كانت فى ظاهر الأمر تحت رقابة شديدة وجدت سعيدة بكونها حبيبة عشاق ذوى عدد »[2] .

لم يكن ذلك أمراً نادرا حتى يمكن التجاوز عنه أو عده فى حكم الشاذ ، ولكنه كثر كثرة أزعجت المحاكم المشكلة للنظر فى تلك القضايا ، كما أزعجت جميع العقلاء ، وقد بلغ الأمر أن رفع إلى المحاكم فى مدينة « بالتى مور » أكثر من ألف

---

(١) الحجاب : ص ١٠٠ – ١٠١ .
(٢) نفسه .

حالة فى مدة سنة واحدة ، كلها ارتكبت فيها الفاحشة مع صبايا دون الثانية عشرة من العمر[1] .

هذه الحالة فى المجتمعات الأوربية والأمريكية التى تركت حبل الناس على غاربهم وجعلت الجانب الأخلاق والسلوكى دبر آذانها ، ولم تعتن بالوسائل التى يمكنها تهذيب هذا الأمر ، وتنظيم الميل الجنسى بين الناس حتى تقى نفسها وأبناءها تلك الشرور التى أصيبت بها .

وقد أدى الإسراف فى الميل الجنسى ، ومحاولة إشباعه بالطرق غير المشروعة إلى النتائج الآتية :

١ – قدر المختصون أن تسعين فى المائة من أهالى أميريكا مصابون بالأمراض الخبيثة الناشئة عن الزنا واللواط .

٢ – تقول دائرة المعارف البريطانية : « إن مائتى ألف من البريطانيين يعالجون من مرض الزهرى فى المستشفيات الرسمية . وإن مائة وستين ألفا مصابون بالسيلان » . وهؤلاء هم الذين يعالجون فى المستشفيات الحكومية ، فكيف بالذين يعالجون فى العيادات الخاصة ، بل كيف بالذين لا يعالجون ؟ .

وقد ثبت أن الذين يعالجون من مرض الزهرى فى العيادات الخاصة ٦١٪ ، والذين يعالجون من السيلان ٨٩٪ .

٣ – فى أميريكا يموت ما بين ثلاثين ألفا وأربعين ألفا من الأطفال بمرض الزهرى الموروث فى كل عام .

٤ – بلغ عدد المصابين بالسيلان فى أمريكا ٦٠٪ من النفوس فى سن الشباب[2] .

ومن أجل هذا كله ، خرجت صيحات الإنذار من أفواه العلماء والكتاب ، تحذر عاقبة ذلك البلاء الذى يهدد كيان المجتمعات الغربية على حد

---

(١) الحجاب بتصرف ص ١٠١ .

(٢) عن كتاب القوانين الجنسية بتصرف ص ٣٠٤ .

openkanz.com

سواء ، ليس بالاضمحلال والخراب فقط ، بل بالزوال والفناء .

ذكرت مجلة أميريكية الثالوث الرهيب ، الذى يهدد المجتمعات بالزوال ، ولخصتها فى ١ – الأدب الفاحش الخليع . ٢ – الأفلام السينمائية التى تلقن الناس دروسا عملية فى الفاحشة . ٣ – انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء .

ثم قالت المجلة بعد ذلك : « هذه المفاسد الثلاث فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام ، ولابد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر ، فإن نحن لم نحد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء ، ومشاغل ورقص ، ولهو وغناء »[١] .

---

(١) نقلاً عن كتاب الحجاب للمودودى ص ١٠٥ .

obeikandl.com